

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبثقتي وهو حي (١)

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره . ونعوذ بالله
من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ،
ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه
وسراجاً مُنيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به
من الغي ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً ، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

(١) في مخطوطة دار الإفتاء في الرياض: «وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم». وسأكتفي فيما بعد بالإشارة إلى فروق هذه النسخة بحرف (ف)
اختصاراً.

فصل

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عُمر^(١) رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، قال : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمَحِي ، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

وخرج أبو داود آخره ، وهو قوله : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »^(٢) .

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، آخر صحابي ، توفي بمكة سنة (٧٣) وقيل : (٧٤) هـ . انظر « الإصابة » (٣٤٧/٢) و « شذرات الذهب » (٣١٠/١١ - ٣١١) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٥٠/٢ و ٩٢) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣١٣/٥) وإسناده حسن ، وقد صحح إسناده الحافظ العراقي في « تخريج إحياء علوم الدين » (٢٦٩/١) ، وجوَّده شيخ الإسلام ابن تيمية في « اقتضاء الصراط المستقيم » صفحة (٨٢) ، وله شاهد مرسل بإسناد حسن عند ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٢٢/٥) من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن طاووس عن النبي ﷺ بتمامه . وأخرج القطعة الأخيرة « من تشبه بقوم فهو منهم » أبو داود في سننه رقم (٤٠٣١) ولهذه القطعة الأخيرة شاهد من حديث حذيفة رضي الله عنه أخرجه الطبراني في « الأوسط » كما في « مجمع الزوائد » (٢٧١/١٠) وقد علق البخاري بعضه في صحيحه (٧٢/٦) .

فقوله ، ﷺ ، : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ » يعني أن الله بعثه داعياً إلى توحيدده بالسَّيْفِ بعد دعائه بالحُجَّة ، فمن لم يستجب إلى التوحيد بالقرآن والحُجَّة والبيان ، دُعِيَ بالسَّيْفِ .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

وفي الكتب السَّالفة : وَصِفَ النَّبِيُّ ، ﷺ ، بأنه يُبْعَثُ بِقَضِيبِ الأَدَبِ ، وهو السَّيْفِ .

ووصَّى بعضُ أخبار اليهود عند موته باتِّباعه وقال : إنه يَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَيَسْبِي الذَّرَّارِي والنِّسَاءَ ، فلا يمنعهم ذلك منه .

وروي أنَّ المسيح ، عليه السلام ، قال لبني إسرائيل في وَصْفِ النَّبِيِّ ، ﷺ ، « إِنَّهُ يَسْلُ السَّيْفَ ، فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِهِ طَوْعاً وَكَرْهاً » .

وإنَّما أَمَرَ النَّبِيُّ ، ﷺ ، بالسَّيْفِ^(١) [بعد الهجرة لما صار له دارٌ وأتباع وقوة ومنعة ، وقد كان يتهدَّد أعداءه بالسَّيْفِ] قبل الهجرة .

وكان ، ﷺ ، يطوفُ بالبيت وأشرافُ قريش قد اجتمعوا بالحِجْرِ وقالوا : مارأينا مثل ماصبرنا عليه من هذا الرجل ، قد سَفَّهَ أحلامنا ، وشتَمَ آبائنا ، وعابَ ديننا ، وفرَّقَ جماعتنا ، وسَبَّ آلَهِتَنا . لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم . فلما مرَّ النَّبِيُّ ، ﷺ ، غَمَزُوهُ^(٢) ببعض القول ،

(١) في (ف) : بالقتال .

(٢) أي : عابوه وطعنوا فيه .

فَعُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ﷺ ، وَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَوَقَفَ فَقَالَ : « أَتَسْمَعُونَ يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؟ أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ ^(١) » فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ ، حَتَّى مَافِيهِمْ ^(٢) رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَيْرٌ ^(٣) وَقَعَ ، وَحَتَّى إِنْ أَشَدَّهُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ لِيلِقَاهُ ^(٤) بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ : انصرف يا أبا القاسم راشداً ، فوالله ما كنت جهولاً ^(٥) .

وقال محمد بن كعب ^(٦) : بلغ النبي ، ﷺ ، أن أبا جهل يقول : إن محمداً يزعم أنكم إن بايعتموه عشتم ملوكاً ، فإذا متم بعثتم بعد

(١) مجاز عن الهلاك .

(٢) في « مسند أحمد » (٢١٨/٢) و « مجمع الزوائد » (١٥/٦) : « حتى مامنهم » .

(٣) في « مسند أحمد » و « مجمع الزوائد » : « طائر » .

(٤) في « مسند أحمد » : « ليرفاً » وفي « مجمع الزوائد » : « ليرفؤه » أي يهدئه ويُسكِّنه ويرفق به .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢١٨/٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . وذكره الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٥/٦ و ١٦) وقال في آخره : قلت : في الصحيح طرفٌ منه ، رواه أحمد ، وقد صرح به إسحاق بالسَّماع ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وذكر نحوه أبو يعلى الموصلي في « مسنده » (٣٢٤/١٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وإسناده حسن .

(٦) هو محمد بن كعب القرظي التابعي ، توفي سنة (١٠٨) هـ وقيل غير ذلك . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/٦٥ - ٦٨) و « شذرات الذهب » (٤٦/٢) وإسناده هذه الرواية منقطع .

موتكم ، وكانت لكم جَنَانٌ خَيْرٌ من جَنَانِ الْأَرْدُنِّ ، وأنكم إن خالفتموه ؛
كان لكم منه الذَّبْحُ ، ثم بُعِثْتُمْ بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعَذَّبُونَ
بها ^(١) ، فبلغ النَّبِيُّ ﷺ ، قوله ، فقال : « وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ إِنَّ لَهُمْ مِنِّي
لَذَبْحًا ، وَإِنِّي ^(٢) لَأَخِذُهُمْ » .

وقد أمر الله تعالى بالقتال في مواضع كثيرة .
قال تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ [التوبة : ٥] .
وقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا
أَخْتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ [محمد : ٤] .
ولهذا عُوتِبُوا على أخذ الفِدَاءِ منهم في أول قتالٍ قاتلوه يوم بدرٍ ،
ونزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي
الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .
وكانوا قد أشاروا على النَّبِيِّ ﷺ ، بأخذ الفِدَاءِ من الأسارى
وإطلاقهم .

قال ابن عيينة ^(٣) : أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، بأربعة سيوفٍ : سيفٌ
على المشركين من العرب ، حَتَّى يُسَلِّمُوا ، وسيفٌ على المشركين من

(١) في المطبوع : « فيها » .

(٢) في المطبوع : وإنه .

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهذلي الكوفي ، أبو محمد ، مُحَدِّثُ الْحَرَمِ
الْمَكِّي ، وُلِدَ بِالْكُوفَةِ ، وَسَكَنَ مَكَّةَ ، وَتُوفِيَ بِهَا سَنَةَ (١٩٨) هـ وَإِذَا أُطْلِقَ
« سُفْيَانُ » عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ فَهُوَ الْمَعْنَى بِذَلِكَ . انظر « الْعُقَدُ الثَّمِينُ فِي تَارِيخِ
الْبَلَدِ الْأَمِينِ » (٤/٥٩١ - ٥٩٢) و « شَذَرَاتُ الذَّهَبِ » (٢/٤٦٦ - ٤٦٧) .

غيرهم ، حَتَّى يُسَلِّمُوا أَوْ يُسْتَرْقُوا أَوْ يُفَادَى ^(١) بهم ، وسيفٌ على أهل الكتاب حتى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ، وسيفٌ على أهل القبلة من أهل البغي .
وفيما ذكره نزاعٌ بين العلماء ، فإن منهم من يجيز المُفَادَةَ والاسترقاق في العرب وغيرهم ، وكذلك منهم من يُجيز أخذ الجزية ^(٢) من الكُفَّار جميعهم .

والذي يظهر أنَّ في القرآن أربعة سيوفٍ : سيفٌ على المشركين ، حَتَّى يُسَلِّمُوا أَوْ يُؤْسَرُوا ، ﴿ فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ [محمد : ٤] ، وسيفٌ على المُنَافِقِينَ ، وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة ^(٣) وسورة التحريم ^(٤) وسورة الأحزاب ^(٥) ، وسيفٌ على أهل الكتاب ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ، وسيفٌ على أهل البغي ، وهو المذكور في سورة الحُجُرَات ^(٦) . ولم يسئل ،

(١) في المطبوع : « يقادوا » وهو خطأ .

(٢) في (ف) : أخذ الفدية .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] .

(٤) وهو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم : ٩] .

(٥) لعله يريد قوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٧٣] ولكن ليس فيها المعنى الذي أراده ، وهو الجهاد ، والإغلاظ .

(٦) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩] .

ﷺ ، هذا السيف في حياته ، وإنما سلّه عليّ^(١) رضي الله عنه في خلافته ، وكان يقول : « أنا الذي علّمتُ الناس قتال أهل القبلة » .
 وله ، ﷺ ، سيفٌ آخرٌ ، منها سيفه على أهل الردّة ، وهو الذي قال فيه : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ »^(٢) وقد سلّه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من بعده في خلافته على من ارتدّ من قبائل العرب .
 ومنها سيفه على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج ، وقد ثبت عنه الأمر بقتالهم مع اختلاف العلماء في كفرهم . وقد قاتلهم عليّ رضي الله عنه في خلافته مع قوله : « إنهم ليسوا بكفار » .
 وقد روي عن عليّ رضي الله عنه ، أن النبيّ ، ﷺ ، أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين^(٣) . وقد حرّق عليّ طائفة من الزنادقة ، فصوّب ابنُ عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار ، فقال عليّ :
 « وَيَحَ ابن عباس البُحَاث عَنِ الْهَنَاتِ » .
 قوله ، ﷺ ، : « بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ » يعني أمّامها ، ومُراده أنّه بُعث قُدّام السّاعة قريباً منها .

(١) في (ف) : عمر .

(٢) هو قطعة من حديث رواه أحمد في « المسند » (٢٨٢/١) والبخاري (٢٣٨/١٢) في استتابة المرتدين ، وفي الجهاد ، باب لا يعذب بعذاب الله ، والترمذي رقم (١٤٥٨) وأبو داود رقم (٤٣٥١) والنسائي (١٠٤/٧) وابن ماجه رقم (٢٥٣٥) كلّهم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أي الظالمين .

ومن أسمائه ، ﷺ ، الحَاشِرُ ، والعَاقِبُ ، كما صَحَّ عنه ، ﷺ ، أنه قال : « أنا مُحَمَّدٌ ، وأحمد ، و [أنا] المَاحِي ، الذي يَمْحُو اللهُ بِي الكُفْرَ ، و [أنا] الحَاشِرُ الذي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ ، و [أنا] العَاقِبُ » ^(١) ، و [العَاقِبُ] الذي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ .

وقد جَعَلَ اللهُ انشِقَاقَ الْقَمَرِ مِنْ عِلَامَاتِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] . وكان انشِقَاقُهُ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ .

وَصَحَّ عَنْهُ ، ﷺ ، أَنَّهُ قَالَ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَأشار بِأَصْبَعِيهِ : السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى ، خَرَّجَاهُ فِي « الصَّحِيحِينَ » ^(٢) .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » (٤٩٢/٨) في تفسير سورة الصف ، وفي الأنبياء ، باب ماجاء في أسماء النبي ﷺ ، ومسلم رقم (٢٣٥٤) والترمذي رقم (٢٨٤٢) وأحمد في « المسند » (٤/٨٠ و ٨١ و ٨٤) كلهم من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وقوله في آخر الحديث : والعَاقِبُ الذي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ ، تفسير للعَاقِبِ مِنْ بَعْضِ الرِّوَاةِ .

(٢) رواه البخاري رقم (٤٦٥٢) في تفسير سورة النازعات ، ورقم (٤٩٩٥) في الطلاق ، ورقم (٦١٣٨) في الرقاق ، ومسلم رقم (٢٩٥٠) في الفتن ، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، ورواه البخاري رقم (٦١٣٩) ومسلم رقم (٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواه البخاري رقم (٦١٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم رقم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

وخرَّج الإمام أحمد من حديث بُريدة « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ جَمِيعاً إِنْ كَادَتْ لِتَسْبِقَنِي » (١) .

وللترمذي « بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ ، فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقْتُ هَذِهِ لِهَذِهِ - لِأَصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى (٢) - لَيْسَ بَيْنَهُمَا أَصْبَعٌ أُخْرَى » بعض الناس حمّله على أن المراد أنه ليس بينه وبين السَّاعَةِ نبيٌّ آخر كما بين السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى ، والصحيح أنه يدل من ذلك على القرب من السَّاعَةِ .
وكان قَتَادَةُ يشير إلى أن المُرَاد بينه وبين السَّاعَةِ كمقدار فضل السَّبَابَةَ على الوسطى ، وقد قيل : إن بينهما من الفضل مقدار نصف سبع ، وأخذ من هذا أن بقاء أُمته ألف سنة ، وهو سُبْعُ الدُّنْيَا . وقد ورد ذلك مرفوعاً من حديث ابن زميل ، ولكن إسناده لا يصح ، وقد رجح ذلك ابن الجوزي (٣) والسُّهَيْلِيُّ (٤) وقال : إن لم يصحَّ فيه الحديث المرفوع ، فقد صحَّ عن ابن عَبَّاسٍ وغيره ، وهو عند أهل الكتاب كذلك (٥) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٤٨/٥) من حديث بُريدة وهو ابن الحُصَيْب الأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه ، مات سنة (٦٢) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٢٨١/١) .

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٢١٤) من حديث المستورد بن شدّاد رضي الله عنه ، وإسناده ضعيف ، ولكن له شواهد بمعناه يقوى بها ، منها الذي قبله .

(٣) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي المتوفى سنة (٥٩٧) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٥٣٦/٦ - ٥٣٩) .

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله السُّهَيْلِيُّ ، توفى بمراكش سنة (٥٨١) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٤٤٤/٦ - ٤٤٥) .

(٥) هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .

ومما يدلُّ على أن بعثة محمد ، ﷺ ، من علامات الساعة أنه أخبر عن خروج الدَّجَال^(١) في حديث الجَسَّاسَةِ^(٢) .

قوله ، ﷺ ، : « حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » . هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ بَعَثَتِهِ ، ﷺ ، بَلْ مِنْ بَعَثَةِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] فما خلقهم إِلَّا لِيَأْمُرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَمَّا اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٢] .

وقد تكاثرت الأحاديثُ المرفوعةُ ، والآثارُ الموقوفةُ في تفسير هذه الآية أنه تعالى استنطقهم حينئذ ، فأقرُّوا كُلُّهُمْ بوحْدانيته ، وأشهدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وأشهدَ عَلَيْهِمْ أَبَاهُمْ آدَمَ وَالْمَلَائِكَةَ .

(١) في (ف) : أن الدَّجَالَ أخبر عن خروجه .

(٢) حديث الجَسَّاسَةِ ، رواه مسلم رقم (٢٩٤٢) في الفتن ، وأبو داود رقم

(٤٣٢٥) والترمذي رقم (٢٢٥٤) وابن ماجه رقم (٤٠٧٤) من حديث

فاطمة بنت قيس رضي الله عنها .

ثم إنه تعالى تعاھدھم فی کُلِّ زَمَانٍ بِإِرسَالِ الرُّسُلِ ، وإنزالِ
الکُتُبِ (١) ، یدکرھم بالعھد الأول ، ویجددُ علیھم العھد والميثاق علی
أن یوحدوه ویعبدوه ، ولایُشْرکوا به شیئاً ، وأشار فی خطابِ آدم وحواء
عند هبوطھما من الجنة إلی هذا المعنی فی قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا
منھا جمیعاً ، فإِذَا یأتینکم مِنِّی هُدًی ، فمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَاخَوْفٌ علیھم
ولا هم یحزنون ﴾ والَّذین کَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآیَاتِنَا أُولَئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِیہَا خَالِدُونَ ﴿ [البقرة : ٣٨ و ٣٩] . وفي سورة طه نحو هذا (٢) .
فما وفی بنو آدم کلھم بهذا العھد المأخوذ علیھم ، بل نقضه أكثرھم ،
وأشْرکوا باللّٰه ما لم یُنزَّلْ به سلطاناً ، فبعث اللّٰه الرُّسُلَ تجدد ذلك العھد
الأول وتدعوا إلی تجدید الإقرار بالوحدانية .

فكان أول رسول بُعث إلی أهل الأرض یدعو إلی التوحید وینھی عن
الشِّرْکِ نوح علیہ السلام (٣) ، فَإِنَّ الشِّرْکَ قَدْ فَشَا فی الأرض فی بني آدم
قبل نوح ، فبعث اللّٰه نوحاً إلی قومه ، فلبث فی قومه ألفَ سنةٍ إلاّ خمسین
عاماً یدعوھم إلی اللّٰه وإلی عبادته وحده لا شریکَ له ، كما ذکر سبحانه
وتعالى فی سورة نوح عنه أنه قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾
[نوح : ٣] .

-
- (١) فی المخطوط : « وإنزال کتاب » وما أثبتناه من المطبوع ، وهو أصوب .
(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِذَا یأتینکم
مِنِّی هُدًی فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] .
(٣) رواه البخاري (٢٦٥/٦) فی الأنبياء ، و (٣٠٠/٨) فی التفسیر ، ومسلم
رقم (١٩٤) فی الإیمان ، من حدیث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

وأخبر في موضع آخر عنه أنه قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] فما استجاب له إلا قليل منهم ، وأكثرهم أَصَرُّوا عَلَى الشِّرْكِ ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] فَلَمَّا أَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ بِالطُّوفَانِ وَنَجَّى نُوحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] .

ثم إن الله تعالى بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ ، عَلَيْهِ السَّلَام ، فَدَعَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَازَلَ عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ مَنَظَرَةٍ ، وَأَبْطَلَ شُبُهَةَ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ ، وَكَسَرَ أَصْنَامَ قَوْمِهِ حَتَّى جَعَلَهُمْ جُذَاذًا ^(١) فَأَرَادُوا تَحْرِيقَهُ ^(٢) فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَجَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَوَهَبَ اللَّهُ لَهُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، فَجَعَلَ عَامَّةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ ، فَإِنْ إِسْرَائِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ ، وَأَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ ، كِيُوسُفَ ، وَمُوسَى ، وَدَاوُدَ ، وَسُلَيْمَانَ ، عَلَيْهِمُ السَّلَام . وَآخَرُهُمُ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، عَلَيْهِ السَّلَام . وَإِنَّمَا دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

ثم طَبَّقَ الشِّرْكَ الْأَرْضَ بَعْدَ الْمَسِيحِ ، فَإِنْ قَوْمُهُ الَّذِينَ ادَّعَوْا اتِّبَاعَهُ وَالْإِيمَانَ بِهِ أَشْرَكُوا غَايَةَ الشِّرْكِ ، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ ، أَوْ ابْنَ اللَّهِ ، وَجَعَلُوا أُمَّهُ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ .

(١) أَيُ فُتَاتًا .

(٢) فِي الْمَطْبُوعِ : «حَرِيقَهُ» .

وأما اليهودُ، فإنهم وإن تبرؤوا من الشُّركِ، فالشُّركُ فيهم موجودٌ، فإنه كان فيهم من عَبَدَ العِجْلَ في حياة موسى، عليه السلام، وقال فيه :
إنَّه الله، وإنَّ موسى نسي ربَّه وذهب يطلبه، ولا شِرْكَ أعظم من هذا .
وطائفة قالوا : العُزَيْرُ^(١) ابن الله، وهذا من أعظم الشُّركِ .

وأكثرهم اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فأحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال، فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إيَّاهم، لأنَّ من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق، واعتقد جواز طاعته أو وجوبها، فقد أشرك بهذا الاعتبار، حيث جعل التحليل والتحريم لغير الله .

وأما المجوس، فَشِرْكُهُمْ ظَاهِرٌ، فإنَّهم يقولون بآلهين قديمين، أحدهما نورٌ، والآخر ظُلْمَةٌ، فالنور خالق الخير، والظُلْمَةُ خالق الشرِّ . وكانوا يعبدون النيرانَ .

وأما العرب، والهند، وغيرهم من الأمم، فكانوا أظهرَ الناسِ شِرْكَاً، يعبدون مع الله آلهةً كثيرة، ويزعمون أنها تُقَرِّبُ إلى الله زُلْفَى .
فلما طَبَّقَ الشِّرْكَ أَقْطَارَ الأرض، واستطار شرُّه في الآفاق من المشرق إلى المغرب، بعث الله محمداً، ﷺ، بالحنيفية المحضَّة، دين إبراهيم، عليه السلام، وأمره أن يدعو الخلق كُلَّهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فكان يدعو سِرّاً إلى ذلك نحو ثلاث سنين،

(١) قال الزَّبيدي في « تاج العروس » (عزر) (١٣ / ٢٦ - ٢٧) : عُزَيْرٌ، تصغير عُزْر اسم نبيٍّ مختلف في نبوَّته، وقال ابن كثير : المشهور أن عُزيراً نبيٌّ، انظر « البداية والنهاية » (٢ / ٤٦) .

فاستجاب له طائفة من الناس ، ثم أمر بإعلان الدعوة وإظهارها ، وقيل له : ﴿ فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] فدعا إلى الله وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له جهراً ، وأعلن الدعوة ، وذم الآلهة التي تُعبد من دون الله ، وذم من عبدها ، وأخبر أنه من أهل النار ، فثار عليه المشركون ، واجتهدوا في إيصال الأذى إليه وإلى أتباعه ، وفي إطفاء نور الله الذي بعثه به ، وهو لا يزداد إلا إعلاناً بالدعوة وتصميماً على إظهارها وإشهارها والنداء بها في مجامع الناس .

وكان يخرج بنفسه في مواسم الحج إلى من يقدم إلى مكة من قبائل العرب فيعرض نفسه عليهم ، ويدعوهم إلى التوحيد ، وهم لا يستجيبون له ، بل يردون عليه قوله ، ويسمعونه مايكره ، وربما نالوه بالأذى . وبقي عشر سنين على ذلك يقول : « مَنْ يَمْنَعُنِي حَتَّى أُؤَدِّيَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُؤَدِّيَ ^(١) رِسَالَاتِ رَبِّي » ^(٢) .

وكان يشق أسواقهم في المواسم وهم مزدحمون بها كسوق المجاز ، ينادي : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا » ^(٣) ووراءه عمه أبو

(١) في (ف) : أبلغ .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٢ و ٣٩٠) وأبو داود رقم (٤٧٣٤) والترمذي رقم (٤٩٢٦) في عرض النبي ﷺ على تبليغ القرآن ، وابن ماجه رقم (٢٠١) والحاكم في « مستدركه » (٢/ ٦١٢) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قال . كلهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩٢) و (٤/ ٣٤١) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ، وابن حبان رقم (١٦٨٣) « موارد » من حديث طارق بن عبد الله المحاربي ، وهو حديث حسين ، وانظر « مجمع الزوائد » (٦/ ٢١ و ٢٢) فإن له عدة روايات .

لهب يؤذيه ويردُّ عليه وينهى النَّاسَ عن اتِّباعه .

واجتمع المُشركون مرَّةً عند عمِّه أبي طالب يشكونه إليه ويقولون :
شتم آلِهتنا ، وسفَّه أحلامنا ، وسبَّ آباءنا ، فمرُّه فليُكفَّ عن آلِهتنا .
فقال أبو طالب للنَّبِيِّ ﷺ ، أجب قومك فيما سألوه ؟ فقال : « أنا
أدْعُوهم إلى خيرٍ مِنْ ذَلِكَ : أن يتكلَّموا كلمةً تدينُ لهم بها العربُ ،
ويملكون بها العجمَ » فقال أبو جهل : نعطيها وعشر أمثالها ، قال :
« تقولون لا إله إلا الله » فنفروا عند ذلك ، وتفرَّقوا وهم يقولون :
﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥ : (١)] .

وفي رواية إنه ، ﷺ ، قال لعمه : « ياعم [والله] لو وضعوا الشمسَ
في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمرَ ما تركته حتى يُظهره
الله أو أُهلك فيه [ما تركته] » (٢) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٧ و ٣٦٢) والترمذي رقم (٧٨٥) في تفسير
سورة (ص) والحاكم في « مستدركه » (٢/ ٤٣٢) من حديث عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وذكره
السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٢٩٥) وزاد نسبة لابن أبي شيبة ، وعبد بن
حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي ، وذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٢٦٦) قال
ابن إسحاق : وحدَّثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدَّث أن
قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة . . . فقال رسول الله ﷺ : « ياعم
والله لو وضعوا الشمس في يميني . . . » وإسناده معضل ، فإن يعقوب بن
عتبة من ثقات أتباع التابعين ، مات سنة (١٢٨) هـ . لكن للحديث طريق
أخرى عند ابن عساكر من حديث عقيل بن أبي طالب بسند حسن بلفظ « ما =

قال ، ﷺ ، : « لَقَدْ خِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذِي أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ - مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ - وَمَا لِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ » (١) .

وفي رواية عنه ، ﷺ ، قال : « مَا أُؤْذِي أَحَدٌ فِي اللَّهِ مَا أُؤْذِيتُ » (٢) .

كان العدو يَجْهَدُ له في نيل الأذى ، والصديق يلوم على هذا الاحتمال إذا كان كذا ، والمحبة تقول حبذا هذا الشقاء إذا كان في رضى الحبيب والدعوة إلى التوحيد ، حبذا :

وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخِّرُ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمُ أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللَّوْمُ ثُمَّ إِنْ أَبَا طَالِبٌ لَمَّا تَوَفَّى وَتَوَفَّيْتُ بَعْدَهُ خَدِيجَةَ (٣) ، اشتهد المشركون

= أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك ، على أن تشعلوا لي منها شعلة » يعني الشمس ، وانظر « مختصر تاريخ ابن عساكر » (١١٥/١٧) ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٥/٦) ورواه الطبراني في « الأوسط » و « الكبير » ، وأبو يعلى باختصار ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤٧٤) وابن ماجه رقم (١٥١) وابن حبان رقم (٢٥٢٨) « موارد » ، وهو حديث حسن . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وانظر معناه عند الترمذي .

(٢) انظر « ميزان الاعتدال » للذهبي (٥٧٠/٣) و (٤٧٢/٤) .

(٣) قال ابن هشام : وكان موتها قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين . انظر « السيرة النبوية » (٤١٦/١) .

على رسول الله ﷺ ، حتى اضطروه إلى أن خرج من مكة إلى الطائف ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فلم يجيبوه ، وقابلوه بغاية الأذى ، وأمروه بالخروج من أرضهم ، وأغروا به سفهاءهم ، فاصطفوا له صفين ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه ، فخرج ﷺ ، ومعه مولاة زيد بن حارثة ، فلم يمكنه دخول مكة إلا بجوار ، وطلب من جماعة من رؤساء قريش أن يجيروه حتى يدخل مكة فلم يفعلوا ، حتى أجاره المطعم بن عدي^(١) ، فدخل في جواره ، وعاد إلى ماكان عليه من الدعاء إلى توحيد الله وعبادته .

وكان يقف بالموسم على القبائل فيقول لهم قبيلة قبيلة : « يَا بَنِي فُلَان ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، يَا مُرْكُم^(٢) أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »^(٣) ولا يقبلون منه وأبو لهب خلفه يقول : لَا تُطِيعُوهُ .

وكان- ﷺ ، يُنادي « مَنْ يُؤْوِينِي ؟ مَنْ يَنْصُرُنِي ؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ »^(٤) ، فلا يجيبه أحدٌ حتى بعث الله له الأنصار من المدينة فبايعوه .

هذا كله ، وهو صابرٌ على الدعوة إلى الله عز وجل على هذا الوجه ،

(١) انظر ترجمته ومصادرها في « الأعلام » (٢٥٢/٧) الطبعة الرابعة .

(٢) في « مسند أحمد » (٤٩٢/٣) : « آمُرْكُم » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٩٢/٣) وهو جزء من حديث ربيعة بن عباد

الدَّيْلِي ، وهو حديث حسن . وانظر « مجمع الزوائد » (٣٦/٦) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣٢٢/٣ و ٣٣٩) من حديث جابر بن عبد الله

رضي الله عنهما ، وإسناده حسن .

راضٍ بما يحصل له فيها من الأذى ، منشرح الصدر بذلك ، غير متضجر منه ولا جزع . كان إذا اشتكى أحد من أصحابه يقول لهم : « إني عبد الله ولن يضيعني » .

صِرْتُ لَهُمْ عَبْدًا وَمَا لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْتَزَّضَا
مَنْ لِمَرِيضٍ لَا يَرَى إِلَّا الطَّيِّبَ الْمُمْرِضَا؟

وفي « الصحيح » عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، هل مرَّ عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد ؟ فقال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ [وَكَانَ أَشَدَّ] مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَاِنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ^(١) ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ؛ فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ ، فَنَادَانِي ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رِثُكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ وَمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ الْأَخْشَبِينَ ^(٢) عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ

(١) هو قَرْنُ الثَّعَالِبِ ، جمع ثعلب : موضعُ تَلَقَاءِ مَكَّةَ . انظر « معجم ما استعجم » (٢/١٠٦٧) .

(٢) الْأَخْشَبَانِ : هما جبلا مكة . قاله الرازي في « مختار الصحاح » (خشب) .

الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» (١) .

ما مقصود الرسول ﷺ ، إِلَّا أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ ، وما يُبَالِي - إذا حصل ذلك - ما أَصَابَهُ في الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، إذا وَحَّدَ مَعْبُودَهُ ، حَصَلَ مَقْصُودُهُ ، إذا عُبِدَ مَحْبُوبُهُ ، حَصَلَ مَطْلُوبُهُ ، إذا ذُكِرَ رَبُّهُ ، رَضِيَ قَلْبُهُ ، وأَمَّا جِسْمُهُ فَمَا يُبَالِي أَصَابَهُ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ مَا يُؤْلِمُهُ ، أَوْ مَا يُلَاقِيهِ .

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَدْ بُلِيتُ بِهِ فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ وَحَسَبُ سُلْطَانِ الْهَوَى أَنَّهُ يَلْذُ (٢) فِيهِ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ

وكان كلما آذاه الأعداء إذا دعاهم إلى مولاهم ، رجع إلى مولاه فتسلى بعلمه ونظره إليه وقُربه منه ، واشتغل بمناجاته ، وذكره ودعائه وخِدْمَتِهِ ، فَنَسِيَ كُلَّ مَا أَصَابَهُ مِنَ الأَلَمِ مِنْ أَجْلِهِ ، وقد أَمَرَهُ اللهُ بِذلك في القرآن [العظيم] في مواضع كثيرة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور : ٤٨ و ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩] .

(١) رواه البخاري (٢٢٤/٦ و ٢٢٥) في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، وفي التوحيد ، باب (وكان الله سميعاً بصيراً) ، ومسلم رقم (١٧٩٥) في الجهاد ، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) في المطبوع : يؤلف .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴿ [الحجر : ٩٧ - ٩٩] .

وكان ، ﷺ ، إذا حزبه أمرٌ قام إلى الصلاة ^(١) لأن الصلاة صلة .

وكان يقول : « وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(٢) .

سُرُورِي مِنَ الدَّهْرِ لُقْيَاكُمْ	وَدَارُ سَلَامِي مَغْنَاكُمْ
وَأَنْتُمْ مُنْتَهَى أَمَلِي مَا حَيِّتُ	وَمَا طَابَ عَيْشِي لَوْلَاكُمْ
إِذَا ازْدَحَمْتُ فِي فُؤَادِي الْهُمُومُ	أَرْوَحُ قَلْبِي بِذِكْرَاكُمْ
فَلَا تَنْسُوا الْعَهْدَ فِيمَا مَضَى	فَلَسْنَا مَدَى الدَّهْرِ نَنْسَاكُمْ
وَأُسْتَنْشِقُ الرِّيحَ مِنْ أَرْضِكُمْ	لَعَلِّي أَحْظَى بِرُؤْيَاكُمْ

فلم يزل ، ﷺ ، يدعو إلى عبادة الله وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، حتى ظهر دين الله ، وأعلى ذكره وتوحيده في المشارق والمغارب ، وصارت كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، وتوحيده هو الشائع ، وصار الدين كله لله ، والطاعة كلها له جل جلاله ، ودخل

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٨/٥) وأبوداود في « سننه » رقم (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وهو حديث حسن .

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد في « المسند » (١٢٨/٣ و ١٩٩ و ٢٨٥) والنسائي (٦١/٧) في عشرة النساء ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وإسناده حسن . ورواه الحاكم في « مستدركه » (١٦٠/٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأوله « حُبَّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا : النَّسَاءُ ، وَالطَّبِيبُ ، وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَجُعِلَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى اقْتِرَابِ أَجَلِهِ ،
ﷺ ، وَأُمِرَ حِينَئِذٍ بِالتَّهَيُّؤِ لِلِقَاءِ اللَّهِ ، وَالنُّقْلَةِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ .

وكان المعنى : أن قد حصل المقصود من إرسالك ، وظهر توحيدي
في أقطار الأرض ، وزال منها ظلام الشرك ، وحصلت عبادتي وحدي
لا شريك لي ، وصار الدين كله لي ، فأنا أستدعيك إلى جواري
لأجزيك أعظم الجزاء ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿ [الضحى : ٤ و ٥] .

وفي صفته ، ﷺ ، في التوراة « وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ
الْعَوْجَاءَ ، بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَافْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَأَذَانًا
صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا » (١) .

وكان النبي ، ﷺ ، إنما يُقاتل على دخول الناس في التوحيد كما
قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا
عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ
تَعَالَى » (٢) .

(١) رواه البخاري (٢٨٧/٤) في البيوع ، باب ما ذكر في الأسواق ،
و (٤٤٩/٨) في التفسير ، تفسير سورة الفتح ، من حديث عبد الله بن
عمر بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٧٠/١ و ٧١) في الإيمان ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ،
ومسلم رقم (٢٢) في الإيمان ، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب
رضي الله عنهما ، ورواه البخاري (٢١١/٣) في أول الزكاة ،
و (٢٣٣/١٢) ومسلم رقم (٢٠) و (٢١) وأبو داود رقم (١٥٥٦) والترمذي =

وكان إذا بعث سرية للغزو يُوصي أميرهم بأن يدعو عدوه عند لقائهم إلى التوحيد .

وكذلك أمر معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم إلى شهادة التوحيد .

وكذلك أمر علي بن أبي طالب حين بعثه لقتال أهل خيبر .
وروي عنه ، عليه السلام ، أنه كان إذا بعث بعثاً قال : « تَأْلَفُوا النَّاسَ وَتَأَنَّا بِهِمْ ^(١) وَلَا تُغَيِّرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوهُمْ ، فَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ ، إِلَّا أَنْ تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَتَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ » ^(٢) .

قوله ، عليه السلام ، : « وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمَحِي » إشارة إلى أن الله لم يبعثه بالسعي في طلب الدنيا ، ولا بجمعها واكتنازها ، ولا الاجتهاد في السعي في أسبابها ، وإنما بعثه داعياً إلى توحيده

= رقم (٢٦١٠) والنسائي (١٤/٥) وابن ماجه رقم (٣٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في الأصل : « تَأْلَفُوا النَّاسَ وَتَأَنَّا بِهِمْ » من التآني ، وفي « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٤٠/٤١٠) « وتَأَوَّبُوهُمْ » من الأوب ، وهو الرجوع ، أي استميلوا قلوبهم إلى الإيمان بالله تعالى .

(٢) رواه الحافظ ابن عساكر في « تاريخه » (٤٠/٤١٠) عن ابن مندة مرسلًا من حديث عبد الرحمن بن عائد الثمالي ، ويقال : الكندي الحمصي ، وهو تابعي ، ووهم من ذكره في الصحابة ، وهو مرسل ضعيف . وأورد هذا الحديث صاحب « كنز العمال » (٤/٤٣٧ و ٤٦٩) .

بالسَّيف ، وَمِنْ لَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَقْتَلَ أَعْدَاءَهُ الْمَمْتَنِعِينَ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ ، وَيَسْتَبِيحَ أَمْوَالَهُمْ ، وَيَسْبِي نِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ ، فَيَكُونُ رِزْقُهُ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالِ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّ الْمَالَ إِنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ لِيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَمَنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالشُّرْكِ بِهِ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَسُولَهُ ، ﷺ ، وَأَتْبَاعَهُ فَاَنْتَزَعُوهُ مِنْهُ ، وَأَعَادُوهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَهْلِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَلِهَذَا يُسَمَّى الْفِيءُ فَيْئًا ، لِرَجْوَعِهِ إِلَى مَنْ كَانَ أَحَقُّ بِهِ ، وَلِأَجَلِهِ خُلِقَ ، وَكَانَ فِي الْقُرْآنِ الْمَنْسُوحِ « إِنَّمَا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » .

فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ أَحَقُّ بِالْمَالِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ وَالشُّرْكِ ، فَلِذَلِكَ سَلَّطَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَأَتْبَاعَهُ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ ، فَاَنْتَزَعَ أَمْوَالَهُمْ ، وَجَعَلَ رِزْقَ رَسُولِهِ ، ﷺ ، مِنْ هَذَا الْمَالِ ، لِأَنَّهُ أَحَلَّ الْأَمْوَالَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [الْأَنْفَالُ : ٦٩] وَهَذَا مِمَّا خَصَّ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ، ﷺ ، وَأُمَّتَهُ ، فَإِنَّهُ أَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ ، وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ ، إِنَّمَا كَانُوا يَجْمَعُونَهَا ، فَتَأْتِي النَّارُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا ، وَعَلِمَ اللَّهُ ضَعْفَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي خَصَّ بِحِلِّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ هُوَ الْغَنِيمَةُ الْمَأْخُودَةُ بِالْقِتَالِ ، دُونَ الْفِيءِ الْمَأْخُودِ بِغَيْرِ قِتَالٍ ، فَإِنَّهُ كَانَ حَلَالًا مُبَاحًا لِمَنْ قَبَلْنَا ، وَهُوَ الَّذِي جُعِلَ رِزْقُ رَسُولِهِ مِنْهُ . وَإِنَّمَا كَانَ أَحَلَّ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُوهٌ : مِنْهَا : أَنَّهُ انْتَزَاعُ مَالٍ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لِأَنَّهُ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالشُّرْكِ بِهِ ، فَإِذَا انْتَزَعَهُ مِنْهُ وَأَعْطَاهُ لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ

والدَّعوة إلى عبادته ، كان ذلك أحبَّ الأموال إلى الله ، وأطيب وجوه اكتسابها عنده .

ومنها : أنه ، ﷺ ، إنما كان يُجاهد لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، لا لأجل الغنيمة ، فيحصل له الرِّزْقُ تبعاً لعبادته وجهاده في الله ، فلا يكون فرغ وقتاً من أوقاته لطلب الرزق محضاً ، وإنما عبد الله في جميع أوقاته وحده فيها ، وأخلص له ، فجعل الله له رِزقه مُيسراً في ضمن ذلك من غير أن يقصده ولا يسعى إليه .

وجاء في حديث مرسل أنه ، ﷺ ، قال : « أَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ ، وَأَنَا رَسُولُ الْمَلْحَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِالْجِهَادِ ، وَلَمْ يَبْعَثْنِي بِالزَّرْعِ » (١) .
وخرج البغوي (٢) في « معجمه » حديثاً مرسلًا : « إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي زَرَّاعاً وَلَا تَاجِراً ، وَلَا سَخَّاباً بِالْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلَ رِزْقِي فِي رُمَحِي » (٣) .

(١) ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » (٣٦٤/١) من رواية ابن سعد عن مجاهد مرسلًا ، وأوله « أنا محمد ، وأحمد ، أنا رسول الرحمة . . . » الخ فهو ضعيف بهذا السياق ، ولكن ثبت في أحاديث أخر أنه ﷺ رسول الرحمة ورسول الملحمة ، وقد بُعث للجهاد ، ولكنه لم يثبت أنه بُعث بالزَّرع .
(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي ، مات سنة (٣١٧) هـ وكتابه هو « معجم الصحابة » . انظر « شذرات الذهب » (٨٣/٤) ، و « الأعلام » (١١٩/٤) .

(٣) ورواه بنحوه الديلمي في مسند الفردوس كما في « كنز العمال » رقم (٣٢٠٩١) وهو ضعيف بهذا السياق بتمامه ، بالزراعة والتجارة ، ولكنه ﷺ .

وإنما ذكر الرُّمَحَ ، وَلَمْ يَذْكُرِ السَّيْفَ لثَلَا يُقَالُ : إِنَّهُ ، ﷺ ، يُرْزَقُ
من مال الغنيمة ، إنما كان يرزق مما أفاء الله عليه من خير وفدك .

والفيء ما هرب أهله منه خوفاً وتركوه ، بخلاف الغنيمة فإنها مأخوذة
بالقتال بالسيف ، وذكُر الرُّمَحِ أقرب إلى حصول الفيء ، لأنَّ الرُّمَحَ يراه
العدو من بُعْدٍ فيهرب ، فيكون هرب العدو من ظِلِّ الرُّمَحِ ، والمأخوذ
به هو مال الفيء ، ومنه كان رزقُ النَّبِيِّ ، بخلاف الغنيمة ، فإنها تحصل
من قتال السيف ، والله تعالى أعلم .

وقال عمر بن عبد العزيز ^(١) : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا هَادِيًا ، وَلَمْ
يَبْعَثْهُ جَابِيًا .

فكان ، ﷺ ، شُغْلُهُ بطاعة الله ، والدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وما يحصل
في خلال ذلك من الأموال من الفيء والغنائم ، يحصل تبعاً ، لا قصداً
أصلياً ، ولهذا ذمَّ مَنْ تَرَكَ الجهاد ، واشتغل عنه باكتساب الأموال . وفي

= بُعِثَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَلَمْ يَكُنْ سَخَاباً فِي الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلَ رِزْقَهُ تَحْتَ
ظِلِّ رَمَحِهِ ﷺ .

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو حفص الأموي التابعي ،
الخليفة الراشد ، والإمام العادل ، سكن الناس في أيامه ، ومنع الخلاف ،
وبذل وسعه في الاجتهاد وفي طاعة الله تعالى وحرصه على اتباع آثار
رسول الله ﷺ والافتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين ، وكانت خلافته
سنتين وخمسة أشهر ، فملاً الأرض قسطاً وعدلاً ، وسنَّ السُّنَنَ الْحَسَنَةَ ،
وأَمَاتَ الْبِدْعَ ، تُوفِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِدِيرِ سَمْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ سَنَةَ (١٠١) هـ .
انظر « شذرات الذهب » (٢ / ٥ - ٩) .

ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] لَمَّا عَزَمَ الْأَنْصَارُ عَلَى تَرْكِ الْجِهَادِ وَالِاشْتِغَالِ بِإِصْلَاحِ أَمْوَالِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ .

وفي الحديث الذي خرَّجه أبو داود وغيره « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ^(١) وَاتَّبَعْتُمْ ^(٢) أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، [وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ] وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ اللَّهُ مِنْ رِقَابِكُمْ حَتَّى تُرَاجِعُوا دِينَكُمْ ^(٣) » ^(٤) .
ولهذا كره الصحابة رضي الله عنهم الدخول في أرض الخراج للزراعة فإنها تشغل عن الجهاد .

وقال مكحول ^(٥) : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا قَدِمُوا الشَّامَ ذَكَرَ لَهُمْ زَكَاةُ زَرْعِ الْحَوْلَةِ ، فزَرَعُوهَا ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ،

(١) العينة : أن يبيع شيئاً من غيره بثمان مؤجل ، ويسلم إلى المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بأقل من ذلك القدر يدفعه نقداً .

(٢) في « سنن أبي داود » و « سنن البيهقي » : « وأخذتم » .

(٣) لفظه عند أبي داود والبيهقي : « سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تُرَاجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ » .

(٤) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٣٤٦٢) في البيوع ، باب النهي عن العينة ، وأحمد في « المسند » (٢/٤٢ و ٨٤) والبيهقي في « سننه » (٣١٦/٥) كلهم من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وهو حديث صحيح لطرقه .

(٥) هو مكحول الشامي أبو عبد الله ، تابعي ، توفي سنة (١١٣) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٢/٦٦ - ٦٨) .

فبعث إلى زرعهم وقد ابيض وأدرك فحرقه بالنار ، ثم كتب إليهم : إن الله جعل أرزاق هذه الأمة في أسنة رماحها ، وتحت أزجتها ^(١) ، فإذا زرعوا كانوا كالناس . خرجه أسد بن موسى ^(٢) .

وروى أيضاً ^(٣) بإسناد له عن عمر أنه قال : من زرع زرعاً ، واتبع أذناب البقر ، ورضي بذلك ، وأقر به ، جعلت عليه الجزية .

وقيل لبعضهم : لو اتخذت مزرعة للعيال ؟ فقال : والله ماجئنا زراعين ، ولكن جئنا لنقتل أهل الزرع ونأكل زرعهم ^(٤) .

فأكمل حالات المؤمن أن يكون اشتغاله بطاعة الله ، والجهاد في سبيله ، والدعوة إلى طاعته ، لا يطلب بذلك الدنيا ، ويأخذ من مال الفيء ونحوه قدر الكفاية ، كما كان النبي ﷺ ، يأخذ لأهله قوت سنته من مال الفيء ثم يقسم باقيه ، وربما رأى محتاجاً يعد ذلك فيقسم عليه قوت أهله ، فيبقى أهله بلا شيء .

وكذلك من يشتغل بالعلم ، لأنه أحد نوعي الجهاد ، فيكون اشتغاله بالعلم كالجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ، فإن أخذ من أموال الفيء والوقف على العلم أخذ منه قدر الكفاية يتقوى به للاستعانة على جهاده ، ولا ينبغي أن يأخذ أكثر من قدر كفايته من ذلك .

(١) أزجة ، مفرد هازج : الحديد التي في أسفل الرمح .

(٢) هو أسد بن موسى الأموي ، ويقال له : أسد السنة ، توفي سنة (٢١٢) هـ .

انظر « شذرات الذهب » (٣/٥٧) .

(٣) في المطبوع : ورورى البيضاوي .

(٤) في هذا الكلام مبالغة ، والقصد من ذلك أننا ماجئنا زراعين ولكن جئنا مجاهدين .

وقد نصَّ أحمد على أن مال بيت المال كالخراج ، لا يؤخذ منه أكثر من الكفاية ، فمال الوقف أضيق .

ومن اشتغل بطاعة الله فقد تكفل الله برزقه ، كما في حديث زيد بن ثابت (١) المرفوع : « مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَآتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » خرجه الإمام أحمد ، وابن ماجه (٢) .

وخرجه الترمذي من حديث أنس مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلاً صَدْرَكَ غِنًى ، وَأَسَدَّ فَقْرَكَ ، وَإِلَّا تَفَعَّلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا ، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ » (٣) .

(١) هوزيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ، من كتاب الوحي ، ومن أكابر الصحابة ، توفي رضي الله عنه سنة (٤٥) هـ انظر « شذرات الذهب » (٢٣٧/١) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٨٣/٥) وابن ماجه رقم (٤١٠٥) وابن حبان في « صحيحه » رقم (٧٢) « موارد » ، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٢٤٦٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو صحيح بالذي قبله .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٥٨/٢) وابن ماجه رقم (٤١٠٧) ورواه أيضاً الترمذي في « سننه » رقم (٢٤٦٨) في صفة القيامة . وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٤٧٧) « موارد » ، والحاكم في « المستدرک » (٤٤٣/٢) كل من حديث أبي هريرة ، ورواه أيضاً الحاكم (٣٢٦/٤) من حديث معقل بن يسار ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قال .

وخرَّج ابن ماجه من حديث ابن مسعود مرفوعاً : « مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ » (١) .

وفي الآثار الإسرائيلية يقول الله : يَا دُنْيَا اخْدُمِي مَنْ خَدَمَنِي ، وَأَتَعِبِي مَنْ خَدَمَكَ (٢) .

قوله ، ﷺ ، : « وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي » .

هذا يدلُّ على أن العِزَّ والرَّفْعَةَ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمُتَابَعَةِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ، ﷺ ، لامتثال متابعة أمر الله .

قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] .
وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] .

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢٥٧) ورقم (٤١٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وإسناده ضعيف ، ولكن له شاهد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، رواه الحاكم في « المستدرک » (٤٤٣/٢) فهو به حسن .

(٢) ذكره القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢٥/٢ و ٣٢٦) وهو حديث موضوع .

وفي بعض الآثار : يقول الله تعالى : « أنا العزيز ، فمن أراد العزَّ فليطع العزيز » .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ٦٣] . فالذلة والصغار يحصل بمخالفة أمر الله ورسوله .

ومخالفة الرسول على قسمين :

أحدهما : مخالفة من لا يعتقد طاعة أمره كمخالفة الكفار ، وأهل الكتاب الذين لا يرون طاعة الرسول ، فهم تحت الذلة والصغار ، ولهذا أمر الله بقتال أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وعلى اليهود الذلة والمسكنة ، لأنَّ كفرهم بالرسول كفرٌ عناد .

والثاني : من اعتقد طاعته ثم يخالف أمره ، وهذا نوعان ، أحدهما من يخالف أمره بالمعاصي التي يعتقد أنها معصية ، فله نصيب من الذلة والصغار .

وقال الحسن ^(١) : وإن طقطقت بهم البغال ، وهمَلجت بهم البراذين ^(٢) فإنَّ ذلَّ المعصية في رقابهم ، أبى الله أن يُذلَّ إلا مَنْ عَصَاه .

(١) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : تابعي ، إمام أهل البصرة ، وأحد الفقهاء النصحاء ، كان له مواقف مع إلحجاج ، وقد سلم من أذاه ، وإذا أُطلق « الحسن » عند أهل الحديث فالمراد هو ، توفي - رحمه الله - سنة (١١٠) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٢/ ٤٨ - ٦١) .

(٢) الطَّقْطَقَة : حكاية صوت الحجارة . والهمَلَجَة : نوع من المشية تُمرَّن عليها الدواب للخلاء .

كان الإمام أحمد^(١) يدعو : اللهم أعِزَّنَا بالطاعة ، ولا تُذِلَّنَا بالمعصية .

قال أبو العتاهية^(٢) :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ . وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمُ^(٣)
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ إِذَا حَقَّقَ^(٤) التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ
فَأَهْلُ هَذَا النَّوعِ خَالَفُوا الرَّسُولَ ، ﷺ ، مِنْ أَجْلِ دَاعِي الشَّهَوَاتِ .
وَالنَّوعِ الثَّانِي : مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ مِنْ أَجْلِ الشُّبُهَاتِ ، وَهُمْ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ
وَالْبِدَعِ ، فَكُلُّهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ بِحَسَبِ مَخَالَفَتِهِمْ
لِأَوَامِرِهِ .

(١) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي أبو عبد الله ، إمام أهل السنة في عصره ، وكبير علماء بغداد ، توفي ببغداد رحمه الله سنة (٢٤١) هـ .

(٢) البيتان في « ديوانه » ص (٣٩٤) طبع دار صادر ، وهو إسماعيل بن القاسم العنزي ، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية ، شاعر مكثّر ، توفي سنة (٢١١) هـ ، ومن شعره أيضاً :

وَأَيُّ بَنِي آدَمَ خَالِدٌ	أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِدٌ
وَكُلٌّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ	وَيَذُوهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ
هَـ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَا حِدٌ	فِيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَـ
يَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ	وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ شَاهِدٌ

وانظر « شذرات الذهب » (٣/ ٥٢ - ٥٥) .

(٣) في « ديوانه » : « والعَدَمُ » .

(٤) في « ديوانه » : « إِذَا صَحَّحَ » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيْنَالَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٢] .

وأهل الأهواء والبدع كلهم مفترون على الله ، وبدعتهم تتغلظ بحسب كثرة افتراءهم عليه ، وقد جعل الله من حرم ما أحله الله ، وحلل ما حرّمه الله ، مُفْتَرِيًا عليه الكذب ، فمن قال على الله ما لا يعلم ، فقد افترى عليه الكذب ، ومن نسب إلى الله ما لا يجوز نسبته إليه ، من تمثيل أو تعطيل ، أو كذب بأقداره ، فقد افترى على الله الكذب ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

قال سفيان (١) : الفتنة أن يطبع الله على قلوبهم .

فلهذا تغلّظت عقوبة المبتدع على عقوبة العاصي ، لأنّ المبتدع مُفْتَرٍ على الله ، مخالفٌ لأمرِ رسوله لأجلِ هواه .
فأما مخالفة بعض أوامر الرسول ﷺ ، خطأً من غير اتعمدٍ مع الاجتهاد على متابعتة ، فهذا يقع كثيراً من أعيان الأمة من علمائها وصلاحائها ، ولا إثم فيه ، بل صاحبه إذا اجتهد فله أجرٌ على اجتهاده ، وخطؤه موضوع عنه ، ومع هذا فلا يمنع ذلك من علم أمر رسول الله ، الذي خالفه هذا : أن يُبين للأمة أن هذا مخالف لأمر الرسول ﷺ ،

(١) هو سفيان بن عُيَيْنَةَ الهَلَالِيُّ الكُوفِيُّ أبو محمد . تقدّم التعريف به . انظر حاشية الصفحة (٦) .

ﷺ ، نصيحةً لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، ولا يمنع ذلك من عظمة من خالف أمره خطأً ، وهب أن هذا المخالف عظيم له قدر وجلالة وهو محبوب للمؤمنين ، [إلا أن حق الرسول ، ﷺ ، مقدّم على حقه ، وهو أولى بالمؤمنين] من أنفسهم .

فالواجب على كل من بلغه أمر الرسول ، ﷺ ، وعرفه أن يبينه للأمة وينصح لهم ، ويأمرهم باتّباع أمره وإن خالف ذلك رأي عظيم من الأمة ، فإن أمر رسول الله ، ﷺ ، أحق أن يعظم ويُقتدى به من رأي معظمٍ قد خالف أمره في بعض الأشياء خطأً .

ومن هنا ردّ الصحابة ومن بعدهم من العلماء على كل من خالف سنةً صحيحةً ، وربما أغلظوا في الردّ - لا بغضاً له ، بل [هو] محبوبٌ عندهم ، مُعظَّمٌ في نفوسهم - لكن رسول الله ، ﷺ ، أحبُّ إليهم ، وأمره فوق كل مخلوق . فإذا تعارض أمر الرسول ، ﷺ ، وأمر غيره ، فأمر الرسول ، ﷺ ، أولى أن يُقدّم ويُتبع ، ولا يمنع من ذلك تعظيم من خالف أمره وإن كان مغفوراً له ، بل ذلك المخالف المغفور له لا يكره أن يخالف أمره إذا ظهر أمر رسول الله ، ﷺ ، بخلافه ، بل يرضى بمخالفة أمره ومتابعة أمر رسول الله ، ﷺ ، إذا ظهر أمره بخلافه ، كما أوصى الشافعي : إذا صحّ الحديث في خلاف قوله أن يُتبع الحديث ويُترك قوله . وكان يقول : ماناظرت أحداً فأحببت أن يُخطيء ، وما ناظرت أحداً فباليت أظهر الحقُّ على لسانه أو على لساني ، لأنّ تناظرهم كان لظهور أمر الله ورسوله ، لا لظهور نفوسهم والانتصار لها .

وكذلك المشايخ والعارفون كانوا يوصون بقبول الحق من كل من قال الحق صغيراً كان أو كبيراً ، وينقادون لقوله .

وقيل لحاتم الأصم ^(١) : أنت رجل أعجمي لا تُفصح ، وما ناظرت أحداً إلا قطعتة ، فبأي شيء تغلب خصمك ؟ قال : بثلاث ، أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لسانني عن أن أقول له مايسوؤه ، فذكر ذلك للإمام أحمد ، فقال : ماكان أعقله من رجل .
وقد روي عن الإمام أحمد أنه قيل له : إنَّ عبد الوهَّاب الورَّاق ^(٢) يُنكرُ كذا وكذا ، فقال : لا نزال بخير مادام فينا من يُنكر .

ومن هذا الباب قولُ عُمَرَ لَمَنْ قال له : اتَّقِ الله ياأمير المؤمنين ، فقال : « لاخيرَ فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولاخيرَ فينا إذا لم نقبلها مِنكم » .

وردت عليه ^(٣) امرأة مقالته ، فرجع إليها وقال : « رَجُلٌ أخطأ وامرأةٌ أصابت » ^(٤) .

(١) هو حاتم بن عُنْوَان أبو عبد الرحمن ، المعروف بالأصم ، زاهدٌ ، اشتهر بالورع والتَّقشف ، له كلام في الزُّهد والحكم ، وهو من أهل بَلْخ ، زار بغداد واجتمع بالإمام أحمد بن حنبل ، وشهد بعض معارك الفتوح ، توفي رحمه الله سنة (٢٣٧) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٣/١٦٨ - ١٧٠) .

(٢) هو عبد الوهاب بن عبد الحكم الورَّاق البغدادي أبو الحسن ، الإمام القدوة الربَّاني الحجَّة . مات سنة (٢٥١) هـ . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٢/٣٢٣ - ٣٢٤) .

(٣) يعني على عُمَرَ رضي الله عنه .

(٤) لم يثبت هذا عن عمر رضي الله عنه بسند صحيح .

فلا يزال النَّاسُ بخيرٍ ما كان فيهم الحقُّ وتبيين أوامر الرُّسول، ﷺ ،
التي خالفها من خالفها وإن كان معذوراً مجتهداً مغفوراً له ، ولهذا مما
خصَّ الله به هذه الأُمَّة لحفظ دينها الذي بعث الله به رسوله ، ﷺ ، « أَنْ
لَا تَجْتَمَعَ عَلَى ضَلَالَةٍ » (١) بخلاف الأمم السالفة .
فها هنا أمران :

أحدهما : أَنْ من خالف أمر الرُّسول ، ﷺ ، في شيء خطأ مع
اجتهاده في طاعته ومتابعته أوامره ، فإنه مغفورٌ له لا ينقص درجته بذلك .

والثاني : أَنَّهُ لا يمنع تعظيمه ومحبته من تبين مخالفة قوله لأمر
رسول الله ، ﷺ ، ونصيحة الأُمَّة بتبيين أمر الرُّسول ، ﷺ ، لهم ،
ونفس ذلك الرجل المحبوب المعظم لو علم أَنَّ قوله مخالفٌ لأمر
الرَّسول ، لأحبَّ من يبين للأُمَّة ذلك ، ويرشدهم إلى أمر الرُّسول ،
ﷺ ، ويردُّهم عن قوله في نفسه ، وهذه النُّكَّة تخفى على كثيرٍ من
الْجُهَّال بسبب [غُلُوهم في التقليد] (٢) ، ويظنُّ أن الردَّ على معظَّم من
عالمٍ وصالحٍ تنقُصُ به ، وليس كذلك ، وبسبب الغفلة عن ذلك ،
تبدَّل دين أهل الكتاب ، فإنَّهم اتَّبَعُوا زَلَّاتِ علمائهم ، وأعرضوا عمَّا
جاءت به أنبيائهم ، حتَّى تبدَّل دينهم ، واتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم

(١) أخرجه الترمذي في « سننه » رقم (٢١٦٨) في الفتن ، باب لزوم الجماعة ،
وفي سنده سليمان بن يوسف وهو ضعيف ، ولكن له شاهد عند الترمذي
والحاكم في « المستدرک » (١١٦/١) بسند صحيح من حديث ابن عباس
ولفظه : « لَا يَجْمَعُ اللهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَيَدُّ اللهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ » فالحديث
بهذا الشاهد صحيح .

(٢) في (ف) بسبب جهله .

أرباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَأَحْلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ ، فَأَطَاعُوهُمْ ، فَكَانَتْ تِلْكَ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهُمْ ، فَكَانَ كُلُّمَا كَانَ فِيهِمْ رَئِيسٌ كَبِيرٌ مَعْظَمٌ مُطَاعٌ عِنْدَ الْمُلُوكِ ، قَبْلَ مِنْهُ كُلُّ مَا قَالُ ، وَتَحْمِلُ الْمُلُوكُ النَّاسَ عَلَى قَوْلِهِ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَرُدُّ قَوْلَهُ ، وَلَا يُبَيِّنُ مَخَالَفَتَهُ لِلدِّينِ .

وهذه الأئمة عصمها الله عن الاجتماع على ضلالة ، فلا بد أن يكون فيها من يبين أمر الله ورسوله ، ولو اجتهدت الملوك على جمع الأئمة على خلافه ، لم يتم لهم أمرهم ، كما جرى مع المأمون ^(١) والمعتصم ^(٢) والواثق ^(٣) ، حيث اجتهدوا على إظهار القول بخلق القرآن ، وقتلوا الناس وضربوهم ، وحبسوهم على ذلك ، وأجابهم العلماء تقيّةً وخوفاً ، فأقام الله إمام المسلمين في وقتهم أحمد بن حنبل ، فردّ باطلهم حتّى اضمحلّ أمره ، وصار الحقّ هو الظاهر في جميع بلاد الإسلام والسنة ، ولم يكن الإمام أحمد يُحابي أحداً في مخالفة شيء من أمر الرسول ، ﷺ ، وإن دقّ ، ولو عظم مخالفته في نفوس الخلق ، فقد تكلم في بعض أعيان مشايخ العلم والدين لمسألة أخطأها ، فحمل أمره حتّى لمّا

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق ، توفي سنة (٢١٨) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٣/ ٨١ - ٨٩) .

(٢) هو محمد بن هارون الرشيد ، أبو إسحاق المعتصم بالله ، أخو المأمون ، توفي سنة (٢٢٧) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٣/ ١٢٧ - ١٢٩) .

(٣) هو هارون بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد ، أبو جعفر ، توفي سنة (٢٣٢) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٣/ ١٥٠ - ١٥٢) .

مات ، لم يُصَلِّ عليه إلا نحو أربعة أنفس (١) . وكان كلما تكلم في أحد سقط ، لأن كلامه تعظيم (٢) لأمر الله ورسوله ، لا لهوى نفسه .

ولقد كان بشر الحافي (٣) يقول لمن سأل عن مرضه : أحمد الله إليكم ، بي كذا وكذا . ف قيل ذلك للإمام أحمد ، وقالوا : هو يبدأ بالحمد قبل أن يصف مرضه ، فقال أحمد : سلوه عمَّن أخذ هذا ؟ - يعني إن كان هذا لم ينقل عن بعض من سلف فلا يقبل منه . فقال بشر : عندي فيه أثر ، ثم روى بإسناده عن بعض السلف قال : « مَنْ بَدَأَ بِالْحَمْدِ قَبْلَ الشُّكْوَى لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ الشُّكْوَى » فبلغ ذلك الإمام أحمد ، فقبل قوله .

وقد صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ ، أنه قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (٤) فأمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، والردُّ على من خالف

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي ، تكلم الإمام أحمد بن حنبل في بعض تصانيفه رحمه الله ، توفي سنة (٢٤٣) هـ . وكيف لو رأى الإمام أحمد تصانيف من بعده من أهل الشطحات والطامات ، ماذا كان يقول في حقهم . انظر ترجمته في « شذرات الذهب » (٣/ ١٩٧ - ١٩٨) .

(٢) في (ف) لأن كلامه كان تعظيماً .

(٣) هو بشر بن الحارث المروزي المعروف بالحافي ، من أهل الزُّهد والورع ، من أهل مرو ، سكن بغداد وتوفي بها سنة (٢٢٧) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٣/ ١٢٢ - ١٢٦) .

(٤) رواه البخاري موصولاً ومعلقاً بصيغة الجزم في البيوع : باب النجش ، ورواه مسلم في « صحيحه » رقم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها . ورواه أيضاً أحمد في « المسند » (٦/ ١٤٦ و ١٨٠ و ٢٥٦) .

أمر الله ورسوله لا يُتَلَقَّى إِلَّا عَمَّنْ عَرَفَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، ﷺ ، وَخَبَرَهُ
خَبْرَةً تَامَةً .

قال بعض الأئمة : لا يؤخذ العلم إِلَّا عَمَّنْ عَرَفَ بِالطَّلَبِ .

وأمر الرسول ، ﷺ ، نوعان :

أمرٌ ظاهر بعمل الجوارح ، كالصَّلاة ، والصَّيام ، والحَجِّ ،
والجهاد ، ونحو ذلك .

وأمر باطن تقوم به القلوب ، كالإيمان بالله ، ومعرفة ، ومحبة ،
وخشيته ، وإجلاله ، وتعظيمه ، والرَّضا بقضائه ، والصَّبْر على بلائه ،
فهذا كُلُّهُ لا يؤخذ إِلَّا مِمَّنْ عَرَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ .

ومن لم يقرأ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يُقْتَدَى بِهِ فِي عِلْمِنَا ،
فمن تكلم على شيء من هذا مع جهله بما جاء به الرَّسُولُ ، ﷺ ، فهو
داخل فيمن يفترى على الله الكذب ، وفيمن يقول على الله ما لا يعلم ،
فإن كان مع ذلك لا يقبل الحقَّ ممن ينكر عليه باطله لمعرفته ما جاء به
الرَّسُولُ ، ﷺ ، بل ينتقص به وقال : أنا وارث حال الرَّسُولِ ، ﷺ ،
والعلماء وارثون علمه ، فقد جمع هذا بين افتراء الكذب على الله ،
والتكذيب بالحقِّ لما جاء به ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ
بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [الزُّمَرُ : ٣٢]
فإنَّ هذا المتكبر عن الحقِّ والانقياد له ، منقادٌ لهواه وجهله ، ضالٌّ
مُضِلٌّ ، وإنما يرثُ حال الرَّسُولِ ، ﷺ ، من علم حاله ثم اتَّبَعَهُ ، فأما
من لا علم له بحاله فمن أين يكون وارثه ؟ .

ومثل هذا لم يكن ظهر في زمن [السلف الصالح حتى يجاهدوا فيه حقَّ الجهاد ، وإنما ظهر هذا في زمن] قَلَّ فيه العلم ، وكثُر فيه الجهل ، ومع هذا فلا بدَّ أن يقيم الله من يُبَيِّن للأُمَّة ضلاله ، وله نصيبٌ من الذُّلِّ والصَّغار بحسب مخالفته لأمر الرُّسول ، ﷺ .

يا الله العجب ، لو ادَّعى رجل معرفة صناعة من صنائع الدُّنيا ، ولم يعرفه النَّاس بها ، ولا شاهدوا عنده آلاتها ، لكذبوه في دعواه ، ولم يأمنوه على أموالهم ، ولم يَمَكَّنُوهُ أن يعمل فيها ما يدَّعيه من تلك الصناعة ، فكيف بمن يدَّعي معرفة أمر الرُّسول ، ﷺ ، وما شوهد قطُّ يكتب علم الرُّسول ، ﷺ ، ولا يجالس أهله ، ولا يدارسه ؟ فله العجب كيف يقبل أهل العقل دعواه ، ويحكمونه في أديانهم يفسدها بدعواه الكاذبة .
إِنْ كُنْتَ تُنَوِّحُ يَا حَمَامَ الْبَانِ لِلْبَيْنِ ، فَأَيْنَ شَوَاهِدُ الْأَحْزَانِ ؟
أَجْفَانُكَ لِلدُّمُوعِ أَمْ أَجْفَانِي لَا يُقْبَلُ مُدَّعٍ بِلَا بُرْهَانِ

ومن أعظم ما حصل به الذُّلُّ من مخالفة أمر الرُّسول ، ﷺ ، ترك ما كان عليه من جهاد أعداء الله ، فمن سَلَكَ سبيل الرُّسول ، ﷺ ، في الجهاد عَزَّ ، ومن ترك الجهاد مع قدرته عليه ذَلَّ . وقد سبق حديث « إذا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ، وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ مِنْ رِقَابِكُمْ حَتَّى تُرَاجِعُوا دِينَكُمْ » (١) .
ورأى النَّبِيُّ ، ﷺ ، سِكَّةَ الْحَرْثِ فَقَالَ : « مَا دَخَلَتْ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا

(١) تقدم تخريجه صفحة (٢٧) رقم الحاشية (٤) فانظره هناك .

دَخَلَهَا الذُّلُّ» (١) . فمن ترك ما كان عليه النَّبِيُّ ﷺ ، من الجهاد مع قدرته عليه واشتغل عنه بتحصيل الدنيا من وجوها المباحة حصل له الذُّلُّ ، فكيف إذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدنيا من وجوها المحرمة؟ .
قوله ، ﷺ ، : « وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

هذا يدلُّ على أمرين :

أحدهما : النهي عن التشبُّه بأهل الشرِّ ، مثل أهل الكفر ، والفُسوق ، والعصيان ، وقد وَخَّ الله من تشبَّه بهم في شيء من قبائحهم ، فقال تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ ، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : ٦٩] .

وقد نهى النَّبِيُّ ﷺ ، عن التشبُّه بالمشرِّكين وأهل الكتاب ، فنهى عن الصَّلَاة عند طلوع الشَّمْسِ وعند غروبها ، وعَلَّلَ بأنه « حِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ » (٢) فيصير السُّجود في ذلك الوقت تشبُّهاً بهم في الصُّورة

(١) رواه البخاري في « صحيحه » (٤/٥) في المزارعة ، باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه بلفظ « لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الذُّلَّ » . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/١٢٠) من رواية الطبراني عن أبي أمامة أيضاً بلفظ : « مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَغْدُو عَلَيْهِمْ فَدَانٌ إِلَّا ذُلُّوا » . وليس المقصود الذم للزراعة ، فإن رسول الله ﷺ حثَّ على الزَّراعة ، وإنما هو محمول على من شغله الحرث والزَّرع عن القيام بالواجبات والجهاد .

(٢) هو جزء من حديث طويل ، رواه أحمد في « المسند » (٤/١١١) ومسلم رقم .

الظاهرة ، وقال ، ﷺ ، : « إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ فَخَالِفُوهُمْ » (١) .

وفي رواية عنه ، ﷺ ، : « غَيِّرُوا الشَّيْبَ ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ » (٢) ، وقال ، ﷺ ، : « خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ ، أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللَّحَى » (٣) .

وفي رواية « جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللَّحَى ، خَالِفُوا الْمَجُوسَ » (٤) .

= (٨٣٢) في صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٧٥) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ورقم (٥٥٥٩) في اللباس ، باب الخضاب ، ومسلم رقم (٢١٠٣) في اللباس ، باب في مخالفة اليهود في الصبغ ، وأبو داود رقم (٤٢٠٣) في الترجل ، باب الخضاب ، والنسائي (١٣٧/٨) في الزينة ، باب الخضاب ، وابن ماجه رقم (٣٦٢١) في اللباس ، باب الخضاب بالحناء ، وأحمد في « المسند » (٢٤٠/٢) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي رقم (١٧٥٢) في اللباس ، باب ماجاء في الخضاب ، من حديث أبي هريرة ، والنسائي (١٣٧/٨) وأحمد في « المسند » (١٦٥/١) من حديث الرُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَام ، والنسائي (١٣٧/٨) من حديث عبد الله بن عمر ، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .

(٣) رواه البخاري رقم (٥٥٥٣) في اللباس ، باب تقليم الأظفار ، ومسلم برقم (٢٥٩) في الطهارة ، باب خصال الفطرة ، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٤) رواه مسلم في « صحيحه » رقم (٢٦٠) في الطهارة ، باب خصال الفطرة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأمر ، ﷺ ، بالصَّلاة في النَّعال مخالفة لأهل الكتاب (١) . وروي عنه ، ﷺ ، أنه قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا ، لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ الْإِشَارَةُ بِالأَصَابِعِ ، وتسليم النصارى بِالْأَكْفُفِ » خرَّجه الترمذي (٢) .

ونهى ، ﷺ ، عن التشبه بهم في أعيادهم .
وقال عبد الله بن عمر : من أقام بأرض المشركين يصنع نيروزهم ومهرجاناتهم ، وتشبه بهم حتى يموت حُشِرَ يوم القيامة معهم .
وقال الإمام أحمد : أكره حَلَقَ القَفَا ، هو من فعل المجوس ، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم .

فالتشبه بالمشركون والمغضوب عليهم والضالين من أهل الكتاب منهي عنه ، ولا بد من وقوعه في هذه الأمة ، كما أخبر به الصادق المصدوق ، ﷺ ، حيث قال : « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلُكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فَمَنْ ؟ » (٣) .

(١) روى أبو داود رقم (٦٥٢) وابن حبان رقم (٣٥٧) موارد ، والحاكم (٢٦٠ / ١) وصححه ووافقه الذهبي من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَالِفُوا الْيَهُودَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ وَلَا فِي خِفَافِهِمْ » وهو حديث صحيح .

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٦٩٦) وإسناده ضعيف ، ولكن له شاهد من حديث جابر بمعناه ، فهو به حسن .

(٣) رواه البخاري (٢٥٥ / ١٣) في الاعتصام ، ومسلم رقم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قال ابن عُيَيْنَةَ : كان يقال : من فَسَدَ من علمائنا ، ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبَادنا ففيه شبه من النَّصَارَى .

ووجه هذا أن الله ذمَّ علماء اليهود بأكل السُّحْتِ ، وأكل الأموال بالباطل ، والصدَّ عن سبيل الله ، وبقتل النَّبِيِّينَ بغير حقٍّ ، وبقتل الذين يأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، وبالتكبر عن الحقِّ ، وتركه عمداً خوفاً من زوال المآكل والرئاسات ، وبالحسد ، وبقسوة القلب ، وبكتمان الحقِّ ، وتلبيس الحقِّ بالباطل ، وكل هذه الخصال توجد في علماء السوء من أهل البدع ونحوهم . ولهذا تشبَّهت الرَّافِضَةُ باليهود في نحو من سبعين خَصْلَةً .

وأما النَّصَارَى فذمَّهم الله بالجهل والضلالة ، وبالغُلُوِّ في الدِّينِ بغير الحقِّ ، ورفع المخلوق إلى درجة لا يستحقها ، حتى يدَّعي فيه الإلهية ، واتِّباع الكُبراء في التحليل والتحريم . وكل هذا يوجد في جُهَّال المنتسبين إلى العبادة من هذه الأمة .

فمنهم من يعبد بالجهل بغير العلم ، بل يذم العلم وأهله ، ومنهم من يغلو في بعض الشيوخ فيدَّعي فيه الحلول ، ومنهم من يدَّعي الحلول المطلق والاتحاد ، ومنهم من يغلو فيمن يعتقده من الشيوخ ، كما يغلو النَّصَارَى في رهبانهم ، ويعتقدون أن لهم أن يفعلوا في الدِّينِ ما شاؤوا ، وأن من رضي عنه غفر له ، ولا يبالي بما عمل من عمل ، وأن محبتهم لا يضرُّ معها ذنب .

وقد كان الشيوخ العارفون يَنْهَوْنَ عن صحبة الأشرار ، وأن ينقطع

العبد عن الله بصحبته الأخيار ، فمن صحب الأخيار بمجرد التعظيم لهم والغلو فيهم زائداً عن الحد ، وعلق قلبه بهم ، فقد انقطع عن الله بهم ، وإنما المراد من صحبة الأخيار أن يوصلوا من صحبتهم إلى الله ، ويسلكوا طريقه ، ويعلموه دينه .

وقد كان النبي ﷺ ، يحث أهله وأصحابه على التمسك بالطاعة ، ويقول : « اشترُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » (١) . وقال لأهله : « إِنَّ أَوْلِيَّائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ ، وَتَأْتُونَ بِالْذُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ فَتَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ . فَأَقُولُ : قَدْ بَلَغْتُ » (٢) .

ولما سأله ربيعة الأسلمي مرافقته في الجنة قال له : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » (٣) .

فإنما يُراد من صحبة الأخيار إصلاح الأعمال والأحوال ، والاقتداء

(١) رواه البخاري رقم (٢٦٠٢) في الوصاية ورقم (٤٤٩٣) في سورة الشعراء ، ومسلم رقم (٢٠٦) في الإيمان ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ له .

(٢) ذكره بنحوه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٩٦/٣) رقم (٥٦٥٩) من رواية الدَّيْلَمِي عن معاذ رضي الله عنه .

(٣) هو جزء من حديث رواه مسلم في « صحيحه » رقم (٤٨٩) في الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه ، وأبو داود رقم (١٣٢٠) والنسائي (٢٢٧/٢) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه .

بهم في ذلك ، والانتقال من الغفلة إلى اليقظة ، ومن البطالة إلى العمل ، ومن التخليط في التكسب ، والقول والفعل إلى الورع ، ومعرفة عيوب النفس وآفاتنا واحتقارها ، فأما من صحبتهم وافتخر بصحبتهم ، وادّعى بذلك الدعاوى العريضة وهو مُصرٌّ على غفلته وكسله وبطالته ، فهو منقطع عن الله من حيث ظن الوصول إليه ، كذلك المبالغة في تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو ما ينهى عنه .

وقد كان عُمرٌ وغيره من الصّحابة والتابعين ، رضي الله عنهم ، يكرهون أن يطلب منهم الدُّعاء ويقولون : أنبياء نحن ؟ . فدلّ على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلّا للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ، وكذلك التبرُّك بالآثار ، فإنما كان يفعله الصّحابة ، رضي الله عنهم ، مع النّبيّ ، ﷺ ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم بعضاً ، ولا يفعل التابعون مع الصّحابة مع غلوّ قدرهم .

فدلّ على أن هذا لا يفعل إلّا مع الرّسول ، ﷺ ، مثل التبرُّك بوضوئه ، وفضلاته ، وشعره ، وشرب فضل شرابه وطعامه . وفي الجملة ، فهذه الأشياء فتنةٌ للمعظّم والمعظّم لما يُخشى عليه من الغلوّ المُدخِل في البدعة . وربما يترقّى إلى نوعٍ من الشُّرك . كل هذا إنما جاء من التشبّه بأهل الكتاب والمُشركين الذي نُهيته عنه هذه الأُمَّة .

وفي الحديث الذي في « السُّنن » : « إن من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ ، والسُّلْطَانِ المُقْسِطِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ »

وَالْجَافِي عَنْهُ» (١) ، فَالْغُلُوُّ مِنْ صِفَات النَّصَارَى ، وَالْجَفَاءُ مِنْ صِفَات الْيَهُود ، وَالْقَصْدُ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ .

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَنْهَوْنَ عَنْ تَعْظِيمِهِمْ غَايَةَ النَّهْيِ ، كَالْحَسَنِ (٢) ، وَالثَّوْرِيِّ ، وَأَحْمَدَ ، وَكَانَ أَحْمَدُ يَقُولُ : مَنْ أَنَا حَتَّى تَجِئُونِ إِلَيَّ ؟ أَذْهَبُوا اكْتُبُوا الْحَدِيثَ ، وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ ، يَقُولُ : سَلُوا الْعُلَمَاءَ ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْوَرَعِ يَقُولُ : أَنَا لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْوَرَعِ ، لَوْ كَانَ بَشَرٌ حَيًّا تَكَلَّمَ فِي هَذَا .

وَسُئِلَ مَرَّةً عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقَالَ : أَذْهَبُوا إِلَى الزُّهَّادِ ، أَيِ شَيْءٍ نَحْنُ حَتَّى يَجَاءَ إِلَيْنَا ؟ .

وَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى ثِيَابِهِ وَمَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ ، فغَضِبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَقَالَ : عَمَّنْ أَخَذْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ ؟ .
الْأَمْرُ الثَّانِي : التَّشْبَهُ بِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ، فَهَذَا حَسَنٌ مَدُوبٌّ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا يَشْرَعُ الْاِقْتِدَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، فِي أَقْوَالِهِ ، وَأَفْعَالِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، وَسُكُنَاتِهِ ، وَآدَابِهِ ، وَأَخْلَاقِهِ ، وَذَلِكَ مُقْتَضَى الْمَحَبَةِ الصَّحِيحَةِ ، فَإِنْ [الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَا بَدَّ مِنْ مِشَارَكَتِهِ فِي أَصْلِ عَمَلِهِ وَإِنْ قَصَرَ الْمَحَبُّ عَنْ دَرَجَتِهِ .

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي « سُنَنِهِ » رَقْمَ (٤٨٤٣) فِي الْأَدَبِ ، بَابُ فِي تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ ، وَفِي سُنَدِهِ أَبُو كِنَانَةَ الْقُرَشِيُّ ، وَهُوَ مَجْهُولٌ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ فِي « التَّقْرِيبِ » وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ مَرْسَلًا ، فَالْحَدِيثُ حَسَنٌ ، وَقَدْ حَسَنَهُ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ ، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ .
(٢) فِي (ف) : كَمَالُكَ .

قال الحسن : لا تغتر بقولك : [المرء مع من أحب ، إن من أحب قوماً أتبع آثارهم ، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم ، وتقتدي بسنتهم ، وتصبح وتُمسي وأنت على منهاجهم ، حريصاً على أن تكون منهم ، وتسلك سبيلهم ، وتأخذ طريقهم ، وإن كنت مقصراً في العمل . فإن ملاك الأمر أن تكون على استقامة ، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء المردية يحبون أنبياءهم ، وليسوا معهم ، لأنهم خالفوهم في القول والعمل ، وسلكوا غير طريقهم ، فصار موردتهم النار ؟ نعوذ بالله من النار .

كان يونس بن عُبيد ^(١) يُنشد :

فإِنَّكَ مَنْ يُعْجِبُكَ لَاتَكَ مِثْلُهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَصْنَعْ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ
وجاء في الحديث : « ابْكُوا ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا » ^(٢) .

فمن أحب أهل الخير وتشبه بهم جهده ، فإنه يلحق بهم كما في الحديث المشهور : « مَنْ حَفِظَ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ

(١) هو يونس بن عُبيد ، شيخ البصرة في عصره . قال سعيد بن عامر الضبعي :
مارأيت رجلاً قط أفضل منه . مات سنة (١٣٩) هـ . انظر « شذرات الذهب » (٢/ ١٨٨ - ١٨٩) و « الأعلام » (٨/ ٢٦٢) .

(٢) رواه ابن ماجه في « سننه » رقم (٤١٩٦) في الزهد ، باب الحزن والبكاء من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ، وإسناده ضعيف ، وذكره الحاكم في « المستدرک » (٤/ ٥٧٨) من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

الْعُلَمَاءِ» (١) ومن أحبَّ أهل الطَّاعة والذِّكر - على وجه السُّنة -
وجالسهم ، فإنَّه يغفر له معهم وإن لم يكن منهم ، « فَإِنَّهُمْ الْقَوْمُ
لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » (٢) .

فأما التشبُّه بأهل الخير في الظَّاهر ، والباطن لا يشبههم ، فهو بعيد
منهم ، وإنما القصد بالتشبه بهم أن يقال عن المتشبه بهم إنه منهم
وليس هو منهم ، فهذا من خصال النِّفاق كما قال بعض السُّلف : استعيذوا
بالله من خشوع النِّفاق ، أن يرى الجسد خاشعاً ، والقلب ليس
بخاشع .

كان السُّلف يجتهدون في أعمال الخير ، ويعدُّون أنفسهم من
المقصرين المفرطين المذنبين ، ونحن مع إساءتنا نعدُّ أنفسنا من
المحسنين .

(١) هذا الحديث وإن كان مشهوراً ، لكنه غير صحيح ، فقد قال الدَّارقطني :
طرقه كلها ضعيفة ، وليس بثابت . وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني :
جمعت طرقه في جزء ليس فيها طريق تسلم من علَّة قاذحة . وقال النووي
في خطبة « أربعينه » (ص ١٨) : واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن
كثرت طرقه . وانظر « كشف الخفاء » (٢/٣٢٢) و « الفوائد المجموعة »
رقم (٩١٩) و « الدرر المنتثرة » ص (١٢٢) .

(٢) هذه الجملة ، جزء من حديث طويل رواه البخاري (١٧٩/١١) في
الدَّعَوَات ، باب فضل ذكر الله تعالى ، ومسلم رقم (٢٦٨٩) في الذكر ،
باب فضل مجالس الذكر ، والترمذي برقم (٣٥٩٥) في الدَّعَوَات ، كلهم
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كان مالك بن دينار^(١) يقول: إذا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ: «أَفَّ لِي وَتَفَّ».

وقال أيوب^(٢): «إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْزِلٍ».

وقال يونس بن عُبيد^(٣): «أَعَدُّ مِائَةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ لَيْسَ فِيَّ مِنْهَا وَاحِدَةٌ».

وقال محمد بن واسع^(٤): «لَوْ أَنَّ لِلذُّنُوبِ رَائِحَةً لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ».

يامن إذا تشبَّه بالصَّالِحِينَ فهو عنهم متباعد ، وإذا تشبَّه بالمذنبين فحالُه وحالهم واحد ، يا من يسمع ما يَلِينُ الْجَوَامِدَ^(٥) وَطَرْفُهُ جَامِدٌ ، وقلبه أَقْسَى مِنَ الْجَلَامِدِ ، يامن بردَ قلبه عن التَّقْوَى ، كيف ينفع الضَّرْبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ؟ .

(١) هو مالك بن دينار البصري أبو يحيى ، كان مشهوراً بالورع ، يأكل من كسبه ، تابعي ، توفي بالبصرة سنة (١٢٧) هـ وقيل غير ذلك . انظر « سير أعلام النبلاء » (٣٦٢/٥ - ٣٦٤) و « شذرات الذهب » (١١٨/٢) و « الأعلام » (٢٦٠/٥ - ٢٦١) .

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السَّخْتِيَانِي البصري ، أبو بكر ، تابعي ، من الزُّهَاد ، توفي سنة (١٣١) هـ . انظر « شذرات الذهب » (١٣٥/٢) .

(٣) هو يونس بن عُبيد بن دينار العبَّدي ، من أصحاب الحسن البصري ، من الغُزَاة ، توفي سنة (١٣٩) هـ . انظر « شذرات الذهب » (١٨٨/٢) .

(٤) هو محمد بن واسع بن جابر الأزدي ، فقيه ورع ، سيد القراء ، كان من الزهاد من أهل البصرة ، توفي رحمه الله سنة (١٢٣) هـ ، انظر « شذرات الذهب » (٩٧/٢) .

(٥) في (ف): يسمع ما تلين به الجوامد

يا نَفْسُ اَنِّى تُؤَفِّكِينَ ؟ حَتَّى مَتَى ، لَا تَرَعَوِينَ ؟
حَتَّى مَتَى ، لَا تَعْقِلِينَ ^(١) وَتُبْصِرِينَ وَتَسْمَعِينَ ^(٢) ؟
يا نَفْسُ اِنْ لَمْ تَصْلُحِي فَتَشَبَّهِي بِالصَّالِحِينَ ^(٣)

آخِرُهُ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
تسليماً كثيراً إلى يوم الدين
وافق الفراغ من نسخه يوم الأربعاء لتسع مضت من ربيع الثاني من شهر
سنة (١٢٩٩) هـ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

وجاء في آخر مخطوطة دار الإفتاء في الرياض ما نصه :
آخِرُهُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ
وإمام المتقين ، وخاتم النبيين محمد وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ
بإحسان إلى يوم الدين ، عدد ما صلى عليه المصلون وغفل عن الصلاة
والسلام الغافلون ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

-
- (١) في الأصل والمطبوع : لاتعقلينا .
(٢) في الأصل والمطبوع : لاتسمعينا .
(٣) في الأصل والمطبوع : بالصالحينا .

الفهارس العامة

إعداد
حسن مروة

(*) قمنا بفهرسة ماجاء في متن الكتاب فقط باستثناء فهرس الأحاديث والآثار فقد
ضمّمناه ماجاء منها في الحواشي أيضاً ووضعنا بجواره حرف (ح) .

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾	٣٨ ، ٣٩	١٢
﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾	١٩٥	٢٧
سورة النساء		
﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾	٨٠	٣٠
سورة المائدة		
﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾	١١٧	١٣
سورة الأعراف		
﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾	٥٩	١٣
﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾	١٥٢	٣٣
﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾	١٧٢	١١
سورة الأنفال		
﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾	٦٧	٦
﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾	٦٩	٢٤
سورة التوبة		
﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾	٥	٦
﴿ فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم ﴾	٦٩	٤١
﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾	٧٣	٧
سورة هود		

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾	٤٠	١٣
سورة الحجر		
﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾	٩٤	١٥
﴿ ولقد نعلم أنه يضيق صدرك ﴾	٩٧ - ٩٨	٢١
سورة النحل		
﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾	٣٦	١١
سورة طه		
﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾	١٢٣	١٢
سورة الأنبياء		
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾	٢٥	١١
سورة النور		
﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾	٦٣	٣٣
سورة الأحزاب		
﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات ﴾	٧٣	٧ (ح)
سورة فاطر		
﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾	١٠	٣٠
سورة ص		
﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾	٥	١٦
سورة الزمر		
﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾	٣٢	٣٩
سورة محمد		
﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾	٤	٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءٌ ﴾	٤	٧
سورة الحجرات		
﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾	٩	٧ (ح)
﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾	٦٣	٣١
سورة ق		
﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾	٣٩	٢٠
سورة الذاريات		
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	١١
سورة الطور		
﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾	٤٨ - ٤٩	٢٠
سورة القمر		
﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾	١	٩
سورة الحديد		
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾	٢٥	٤
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨	٣٠
سورة التحريم		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾	٩	٧ (ح)
سورة نوح		
﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾	٣	١٢
﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾	٢٣	١٣
سورة الضحى		
﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾	٤ - ٥	٢٢

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
٤٨	ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا
٥	أسمعون يا معشر قريش
٢٧ ، ٤٠	إذا تبايعتم بالعينة
٤٥	اشتروا أنفسكم من الله
٥٠	أمرت أن أقاتل الناس
١٦	أنا أدعوهم إلى خير من ذلك
٢٥	أنا رسول الرحمة ، وأنا رسول الملحمة
٣١	أنا العزيز ، فمن أراد العزَّ فليطع العزيز (حديث قدسي)
٩	أنا محمد ، وأحمد
٣٦	أن لا تجتمع أمتي على ضلالة
٢٤	إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (من القرآن المنسوخ)
٤٥	إن أوليائي منكم المتقون يوم القيامة
١٩	إنني عبد الله ؛ ولن يضيعني
٢٥	إن الله بعثني بالهدى ودين الحق
٢٩	إن الله يقول يا ابن آدم تفرغ
٤٦	إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم
٤٢	إن اليهود والنصارى لا يصبغون
١٠	بعثت أنا والساعة جميعاً

الصفحة	الحديث
٩	بعثت أنا والساعة كهاتين
٣	بعثت بالسيف بين يدي الساعة
١٠	بعثت في نفس الساعة
٢٣	تألفوا الناس
١٦	تقولون لا إله إلا الله
٤٢	جزّوا الشوارب وأرخوا اللحى
٤١	حينئذ يسجد لها الكفار
٤٢	خالفوا المشركين ، أحفوا الشوارب
٤٣ (ح)	خالفوا اليهود فإنهم لا يصلّون في نعالهم
٤٢	غيّروا الشيب ولا تشبّوها باليهود
٤٥	فأعني على نفسك بكثرة السجود
٤٩	فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم
١٧	لتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر
١٧	لقد خفت في الله وما يخاف أحد
١٩	لقد لقيت من قومك
٢٢	لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء
٤٣	ليس منا من تشبه بغيرنا
١٧ (ح)	ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك
١٧	ما أؤذي أحد في الله ما أؤذيت
٤١	ما دَخَلْتُ دارَ قوم إلا دخلها الذلّ
٣٨	من بدأ بالحمد قبل الشكوى لم تكتب عليه الشكوى
٨	من بدّل دينه فاقتلوه

الصفحة	الحديث
٣٠	من جعل الهموم همّاً واحداً همّ آخرته
٤٨	من حفظ أربعين حديثاً حُشر يوم القيامة في زمرة العلماء
٣٨	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا
٢٩	من كانت الدنيا همّه
١٨	من يؤويني ؟ ، من ينصرني ؟ .
١٥	من يمنعني حتى أؤدي رسالات ربي
٦	وأنا أقول ذلك ، إن لهم مني لذبحاً
٢١	وجعلت قرّة عيني في الصلاة
١٥	يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا
١٨	يا بني فلان إني رسول الله إليكم
٣٠	يا دنيا اخدمني من خدمني
١٦	يا عم والله لو وضعوا الشمس



فهرس الأقوال الماثورة

الصفحة

- رجل أخطأ وامرأة أصابت ٤٢
- لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ١٧
- لو أن للذنوب رائحة لم يستطع أحد أن يجلس إليّ ٥٠
- إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل ٤٥
- أعدّ مائة خصلة من خصال الخير ٢٢
- أف لي ، وتف ٥٠

* * *

فهرس الأبيات الشعيرة

الصفحة	القائل	البحر	القافية
١٩	—	مجزوء الرجز	يَعْتَرِضَا
٤٨	—	الكامل	يَصْنَعُ
١٧	—	الكامل	مَتَقَدَّمُ
٢١	—	المتقارب	مَغْنَاكُمُ
٢٠	—	البسيط	أَلُمُ
٣٢	أبو العتاهية	الطويل	السَّقَمُ
٤٠	—	من الدُّوَيْتِ	الأحزانِ
٥١	—	مجزوء الكامل	لا ترعوينُ

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

الأخشبان : ١٩	الشام : ٢٧
البيت : ٤	الطائف : ١٨
الحجر : ٤	فذك : ٢٦
الحولة : ٢٧	قرن الثعالب : ١٩
خيبر : ٢٦ ، ٢٣	مكة : ١٨ ، ١٥ ، ٩
سوق المجاز : ١٥	اليمن : ٢٢

* * *

فهرس الأعلام

آدم (عليه السلام) : ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،	إسحق (عليه السلام) : ١٣
٢٩	أسد بن موسى : ٢٨
إبراهيم (عليه السلام) : ١٣ ، ١٤	إسرائيل = يعقوب (عليه السلام) : ١٣
ابن الجوزي = عبد الرحمن : ١٠	إسماعيل (عليه السلام) : ١٣
ابن زميل : ١٠	أنس = ابن مالك : ٢٩
ابن عباس : ٨ ، ١٠	أيوب = ابن أبي تميمة : ٥٠
ابن عمر = عبد الله : ٣ ، ٤٣	بريدة : ١٠
ابن عيينة = سفيان : ٦ ، ٣٣ ، ٤٤	بشر الحافي : ٣٨ ، ٤٧
ابن ماجه : ٢٩ ، ٣٠	البغوي : ٢٦
ابن مسعود = عبد الله : ٣٠	الترمذي : ١٠ ، ٢٩ ، ٤٣
أبو بكر رضي الله عنه : ٨	الثوري = سفيان : ٤٧
أبو جهل : ١٦	جبريل (عليه السلام) : ١٩
أبو داود : ٣ ، ٢٧	حاتم الأصم : ٣٥
أبو طالب : ١٦ ، ١٧	الحاشر : ٨ ، ٩
ابن عبد ياليل بن عبد كلال : ١٩	الحسن = البصري : ٣١ ، ٤٧ ، ٤٨
أبو العتاهية = إسماعيل بن القاسم : ٣٢	خديجة (رضي الله عنها) : ١٧
أبولهب : ١٦ ، ١٨	داود (عليه السلام) : ١٣
أحمد = ابن حنبل : ٣ ، ١٠ ، ٢٩ ،	الدجال : ١١
٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٧	ربيعة الأسلمي : ٤٥

المأمون : ٣٧	زيد بن ثابت : ٢٩
مالك بن دينار : ٥٠	زيد بن حارثة : ١٨
محمد بن كعب : ٥	سليمان (عليه السلام) : ١٣
محمد بن واسع : ٥٠	الشَّهْلِي = عبد الرحمن : ١٠
المسيح (عليه السلام) : ١٣ ، ٤	الشافعي : ٣٤
المطعم بن عدي : ١٨	عائشة (رضي الله عنها) : ١٩
معاذ بن جبل : ٢٣	العاقب : ٩ ، ٨
المعتصم : ٣٧	عبد الوهاب الوراق : ٣٥
مكحول : ٢٧	العُزَيْر (عليه السلام) : ١٤
موسى (عليه السلام) : ١٣ ، ١٤	علي (رضي الله عنه) : ٢٢ ، ٨
نوح (عليه السلام) : ١٣ ، ١٢	عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) :
الواثق : ٣٧	٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٦
يوسف (عليه السلام) : ١٣	عمر بن عبد العزيز : ٢٦
يونس بن عبيد : ٥٠ ، ٤٨	قتادة : ١٠

* * *

مصادر ومراجع لتحقيق

- إحياء علوم الدين : للغزالي ، طبعة البابي الحلبي بالقاهرة .
- الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلاني ، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت .
- الأعلام : للزركلي ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩٩ هـ .
- اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ، لابن تيمية ، بعناية الشيخ محمد حامد الفقي .
- البداية والنهاية : لابن كثير ، مصورة دار المعارف بيروت ، ومكتبة النصر بالرياض ١٣٨٦ هـ .
- تاج العروس : طبعة وزارة الإعلام في الكويت بتحقيق جمهرة من العلماء .
- تاريخ دمشق : لابن عساكر (الجزء الأربعون) بتحقيق الباحثة الفاضلة سكيمة الشهابي .
- الجامع الصغير : للسيوطي ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دمشق دون تاريخ .
- الدر المنثور في التفسير المأثور : للسيوطي ، بيروت دون تاريخ .
- الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة : للسيوطي ، تحقيق محمود الأرناؤوط ومحمد بدر الدين قهوجي ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ١٤٠٨ هـ .
- ديوان أبي العتاهية : تحقيق الدكتور شكري فيصل ، دار الملاح ، دمشق .

- سنن أبي داود : بتحقيق عزة عبيد الدعاس وعادل السيد ، حمص ١٣٨٨ هـ .
- سنن البيهقي : مصورة دار الفكر بيروت .
- سنن الترمذي : بتحقيق عزة عبيد الدعاس ، حمص ١٣٨٥ هـ .
- سنن ابن ماجه .
- سنن النسائي الصغرى : بشرح السيوطي وحاشية السندي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- سير أعلام النبلاء : للذهبي ، تحقيق جماعة من المحققين ، بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١ - ١٤٠٥ هـ .
- السيرة النبوية : لابن هشام ، مصورة مؤسسة علوم القرآن ، دمشق .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي (١ - ٦) أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط ، حققه وعلّق عليه محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ١٤٠٦ - ١٤١١ هـ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : لابن حجر العسقلاني ، طبعة مصر .
- صحيح مسلم : بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت .
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين : للفاسي بتحقيق جماعة من العلماء ، مصورة مؤسسة الرسالة بيروت .
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة : للشوكاني ، بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني ، مصورة دار الكتب العلمية بيروت .
- كشف الخفاء : للعجلوني ، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت .
- كنز العمال : للمتقي الهندي ، مصورة مؤسسة الرسالة بيروت .
- متن الأربعين النووية : للإمام النووي ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمود الأرناؤوط ، نظر في تحقيقه وحكم على أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ١٤١٠ هـ .

- مختصر تاريخ دمشق : لابن منظور ، تحقيق جماعة من المحققين ، دار الفكر بدمشق .
- مجمع الزوائد : للهيتمي ، طبعة مكتبة القدسي بالقاهرة .
- مختار الصحاح : للرازي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٧٣ هـ .
- المستدرک على الصحيحين : للحاكم ، مصورة دار المعرفة ببيروت .
- مسند أبي يعلى الموصلي : تحقيق حسين الأسد ، دار المأمون للتراث ، دمشق ١٤٠٤ - ١٤٠٩ هـ .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل : مصورة المكتب الإسلامي ودار صادر ، بيروت ١٣٨٩ هـ .
- مسند الشهاب : للقضاعي : تحقيق عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥ هـ .
- مصنف ابن أبي شيبة ، طبعة الباكستان .
- معجم ما استعجم : للبكري ، تحقيق السقا والشلي والأبياري ، مصورة عالم الكتب ببيروت .
- موارد الظمان : للهيتمي ، تحقيق عبد الرزاق حمزة ، دار الكتب العلمية ببيروت .
- ميزان الاعتدال : للذهبي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مصورة دار المعرفة ببيروت .

* * *